

خاتمة الكتاب

وقد رأينا أن نختم هذا الكتاب بعبارة «هوغو» الكاشفة عن فطنته البارزة وعن توجهه الى الانسان والكون والرابطة بينهما. عندما نشاهد ما قاله «هوغو» بكلمات نابغة من وجدانه الممتزج بمشاعر افراد الانسان جميعاً، لا نعتقد ان أحداً يشك في انها كلمات خالدة مكتوبه على القلوب الانسانية - مع ما فى القلوب من امواج الاضطرابات المدهشة - وانى لا اقول، ان ما افاده «هوغو»، امور جديدة ليست لها سابقة فى الافكار الانسانية؛ لا، بل الانسان يحملها فى غريزته الاولى، وانما الانبياء والعباقرة بواعث هادية الى تلك الغريزة المعصومة. والكلمات التى نقلها عن «هوغو» العبرى لا ريب فى انها من أسمى وسائل الانتباه الى الحقائق المضيئة فى الغريزة الانسانية، وهو يقول:

ليس لنا ان نسلب من الروح شيئاً؛ فان السلب شر، ولكن لنا ان نصلحها أو نغيرها شكلياً. ان بعضاً من العوامل الانسانية يتجه نحو المجهول: كالفكرة، والرؤيا، والصلاة. ان العالم المجهول بحر والوجدان هو البوصلة، الى اين تذهب هذه الاشعة الروحية؟ الى الظلمة اى النور الحقيقى. العظمة الديموقراطية هى ان لا تنكر الظاهرة الانسانية فتركها. ان الحقوق المساوية لحقوق الانسان أو على الاقل ان الحقوق القريبة منها، هى الحقوق الروحية. محو العصبية، وتكريم «اللامتناهى»، قانون حقيقى. ان الانسان لا بد من ان يعمل بوظيفته الانسانية، وان لا يقتنع بالجلوس تحت شجرة الخلقة بالسير والنظر فى اغصانها واوراقها. ان لنا وظيفة هامة وحيدة وهى العمل فى سبيل الروح الانسانية والدفاع عن الاسرار حبال الاعجاز، والخضوع للاله غير المدرك وطرد ما ليس بمعقول، وعدم الاعتقاد بكل ما يعجب الانسان الا ما يبدو منه ضرورياً، وجعل الايمان سليماً، ورفع الخرافات من الدين، وتجريد الله من القيود. العبادة حسنة بكل طرقها شريطة أن تكون بنينة خالصة. لا تعشقوا الامور الدنيوية، وتوجهوا الى «اللامتناهى». اليوم «كما نعلم» تعمل فلسفة خاصة لانكار «اللامتناهى». فهناك فلسفة اخرى فى علم الامراض تنكر الشمس وتسمى هذه الفلسفة «العمى». ان الوصول الى احساس لا ادراك منبع الحقيقة (الذى نفقده) كعصا قد وصل اليه العمى. مما يثير التعجب ان هذه الفلسفة العمياء تحمل فى نفسها تفرعنا ممتزجاً بالشفقة على الفلسفة التى ترى وجود الله، انها كفأره عمياء تصيح: انى اشفق على النوع الانسان ومعهم الشمس المشرقة. نحن نعلم ان فى العالم ملحدين مقتدرين، ولكنهم ايضاً اهدوا الى الحقيقة فى بواطنهم وهم ليسوا على يقين من الحادهم، كل ما يقول هؤلاء فهو لا يتجاوز عن تعريف، وعلى كل حال وان لم يعتقدوا بالاله الا انهم لعظمة ارواحهم وافكارهم يثبتون وجود الله (وان اختلفت لغاتهم واصطلاحاتهم). ونحن مع تحليلنا اللادغ لفلسفة هؤلاء المنكرين نحييهم ونقول ايضاً: لا يليق بالتبجيل

سرور الانسان بعدة كلمات. يتخيل مكتب علوم ما وراء الطبيعة المجعول فى الشمال (بريطانيا) انه أوجد فى المعرفة البشرية بتبديل كلمه القوة بالارادة انقلاباً عظيماً، ويزعم انه لو قيل بدل «النبات ينمو» ان «النبات يريد» لكان كلاماً ذا معنى عظيم بشرط ان نضيف اليه ان «الكون يريد» لماذا؟ لانه ينتج ان «النبات يريد» ... ولكننا نعتقد بدون تعصب لمعارضة بأن تصور الارادة فى النبات - الذى يقبله هذا المذهب - اكبر غموضاً من الاذعان بوجود ارادة كلية فى عالم الخلق والذى ينكره هذا المذهب.... وبالنتيجة ان الفلسفة التى ينتهى فيها كل شيء بكلمه هجائية وهى: لا، لا تترك للفكرة طريقاً مفتوحاً. «وليس لكلمة «لا» جواب الا «نعم»^١ مهما يكن من أمر فان فى عبارات «هوغو» الخالدة حقائق واضحة يحسها كل عاقل ومتأمل فى الانسان والكون العظيمين، ونحن نشرح بعضاً من جملها العالية التى قد يتصورها البعض غامضة أو مما يعوزها البرهان.

١- ليس لنا ان نسلب من الروح شيئاً يعنى به لا يجدر بنا ان نسلب عن الانسان شيئاً هو موجود فيه. وهو يقصد به ان الانسان يحمل فى وجدانه التوجه الى المبدأ الاعلى وحب العدل والتعاون والاستياء من الظلم وغريزة حب التكامل وما اليها من الحقائق المحسوسة فى كل فرد من الانسان. فليس من المشروع ان نقول له: ان تلك الامور ليست الا تخيلات لا تجد من الحقيقة شيئاً، فكما لا يمكن ان يقال للانسان انك لست بعاقل أو ليست لك عينان، أو لا يمكن لك ان تفكر «من اين جئت والى ماذا مصيرك؟» كذلك من المستحيل ان نسلب عنه الحقائق المذكورة ونقول له لا تتوجه الى الله، ولا تستحسن العدل والتعاون، ولا تبعد عن الظلم، وليس التكامل الا امرأ موهوماً. نعم لنا ان نصلح ما يجده الانسان فى صميم غريزته ليستفيد منه بأكمل وجوهه وأن لا نترك اللاعب يلعب بعقول الناس بتكرار مثل هذه الكلمات، ويستعملها فى سبيل تحقيق أهدافه السيئة.

٢- ان العالم المجهول بحر وسيع والوجدان هو البوصلة فى ذلك البحر، وهذه الجملة ايضاً ذات معانٍ عالية يجد الانسان فى نفسه صدقها بأدنى توجه اليها، نعم ان الوجدان اعظم من ان تنبرى لتحليله عدة سطور يكتبها البنان بدلالة العقل، وان الصفحة التى يقرأ سطور الوجدان فيها هى نفس الوجدان ولا بد من ان يرجع القارى اليها لا محالة. وكلنا يعلم انه مع اختلاف هائل فى الالفاظ التى تستعمل فى الوجدان لا يكاد يضل الاحساس عند سماعها فيلتنفت الى غير الوجدان، فقد يقال: القلب يدرك الامر الفلانى، وقد يقال: ان الغريزة الانسانية تحكم بكذا، وتارة يسمى بالفؤاد، واخرى بالفطرة الاولية وثالثة بالعقل العملى، ورابعة باحساس

مجهول... ولكنها مفاهيم مختلفة تشير الى حقيقة واحدة.

٣- ولقد اجاد «هوغو» في تشبيه الوجدان بالبوصله، مع امكان ان يضاف اليه ان طرفي دالته يمتد الى اللا متناهي، الابيض منهما الى «اللامتناهي» في السعادة، والاسود منهما الى «اللامتناهي» في الشقاء.

٤- ان الفلسفة العمياء تحمل في نفسها تفرعنا ممتزجاً بالشفقة على الفلسفة التي تقول بوجود الله. انها كفأرة عمياء تشفق على النوع الانساني لانهم يعيشون في ضوء شمسهم.

٥- ان تصور الارادة في نمو النبات من تلقاء نفسها اشد غموضاً من الارادة الكلية لمجموعة الموجودات وذلك واضح غايته لان التصور الاول يفرض لكل موجود معروض للقانون حقيقة غير طبيعية تهديه الى سبيله وهي الارادة، فبذلك يعترف منكر الاله الواحد الحقيقي بمليارات الالهة وان شئت قل بالهة تساوي عدد الموجودات، في حين ليس للالهى الحقيقي الاله واحد.

٦- ان في العالم ملحدين مقتدرين ولكنهم ايضاً اهدتوا الى الحقيقة في بواطنهم وليسوا على يقين من الحادهم. وهذه الجملة ايضاً تكشف عن سعة اطلاع «هوغو» على الافكار البشرية. فان التاريخ الانساني لا يخبرنا عن مفكر قام بالبرهنة على نفى وجود الله كي يوجب اليقين به، ان هم الا يشككون في البراهين التي يسوقها الالهيون على اثبات المبدأ الاعلى، ومن الضروري ان المناقشة في ادلة المثبتين — صحيحة أو باطلة — لا توجب الاطمئنان بنفى وجود الله فكيف توجب اليقين به. نعم قد توهم بعض الكتاب ان مسألة الشرور الظاهرة في عالم الاحياء دليل يوجب اليقين بانكار الله، ولكنها ايضاً لا تزيد عن الجهل بحقيقة الحياة وشؤونها، والانكار المستند بوجود الشرور كما اشرنا اليه سابقاً لا يزيد عن قصة رجل دخل قصرًا معموراً فيه آيات التدبير والحكمة، ولكنه عند الوصول الى مدخل القصر شاهد دماءً وأعضاءً مقطعة فهل يمكن ان يغيب عن فكرة الرجل الالتفات الى براعة مهندس القصر وبانيه بمشاهدة تلك الدماء والاعضاء المقطعة؟ أو ان

السؤال عن تلك المشاهد، غير الاهتمام بالبراعة والنظام المشهودين في القصر؟

وقد ختمنا الابحاث وكان محصولها جميعاً :

الله، التكليف، المعاد، حقائق أثبتها العلم

ونحن نعظم العلم ونخضع له ونعيش على ضوئه

وله الحمد حمد الشاكرين، وعلى رسوله وآله الصلاة والسلام

طهران - في الثاني والعشرين من رمضان ١٣٧٨ هـ

محمد تقى الجعفرى التبريزى